النقدالأدبی بین المفاضلة والموازنة والمقارنة

میثم طارم*

الملخص

إن النقد الأدبی (litratary criticism) نوع من أنواع النشاطات النظریة فی الأدب یبتغی الناقد من خلاله (critic) تحلیل (explication) الآثار الأدبیة و تقییمها لیُبدی رأیه فیها استنادا إلی مقاییس النقد و معاییره و إنه الیوم یُعَدّ فنا من الفنون الأدبیة. و بما أن هذه المعاییر تختلف من عصر إلی عصر و من ناقد إلی ناقد آخر فنری أن النقاد قد نهجوا فیه مناهج مختلفة و سلکوا مسالک متباینة.

فالنقد و إن طرأت علیه فی طریقه نحو التقدم و الرقیّ مناهج مختلفة و نزعات متباینة،إلا أننا اخترنا من تلک المناهج الکثیرة منهجا واحدا لندرسه عبرالتاریخ و نعالج فی مقالنا هذا خط سیر هذا المنهج النقدی فیالأدب العربی و مدی إسهامه فی توسیع آفاق النقد الأدبی، و هوالأسلوب النقدی الذی یمکن لنا أن نسمیّه فی عصرٍ «المفاضلة» و فی عصرٍ «الموازنة» و فی عصرٍ آخر «المقارنة» فإنه قد خلّف للأدبٍ العربی ثروة نقدیة عظیمة رغم ما کان یتأثر أحیانا بالعصبیات والأهواء.

الکلمات الدلیلیة: النقدالأدبی، الأسس الجمالیة، الصور البلاغیة، المفاضلة، الموازنة، المقارنة، الجمالالفنی، المعاییر النقدیة.

*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت (استادیار دانشگاه آزاد اسلامی ـ واحد جیرفت).

تاریخ الوصول: ۱۳۸۸/۱/۲۸ هـ . ش تاریخ القبول: ۱۳۸۸/٤/۲٤ هـ . ش

المفاضلة (compatison) فی‌النقد الأدبی

بما أن الناقد ـ فی أیّ‌عصر کان ـ لا یبتغی بنقده الآثار الأدبیة إلا تمییز الأثر الأدبی الجید من ردیئه من ناحیة و إرشاد الأدیب والقارئ کلیهما من ناحیة أخری، فلا بد أن یکون له فی هذا التمییز معیار و مقیاس لیزن به‌القطعة الأدبیة و یقیسها علیه؛ و أما الناقد فی العصور الأولی من تاریخ‌الأدب العربی ـ کما نعرف ـ فلم یکن یعرف المعاییر النقدیة المعروفة و لا المقاییس المألوفة و لا تلک الصور البلاغیة والموازین الشعریة من‌العروض والقافیة و عیوبها و لا قواعد اللغة و لا الأسس الجمالیة الفنیة، إذ إن هذه‌العلوم قد وضعت متأخرة، کما وضع قواعد النحو أبو الأسود الدوئلی (ت ۶۹ ه) (الجمحی، لاتا، ج ۱، ص ۱۲ و ابن‌الندیم، ۱۹۷۸م، ص ۱۱۵ و الاصفهانی، ۱۹۸۶م، ج ۱۲، ص ۳۴۶ و زیدان، ۱۹۹۲م، ج ۱، صص ۲۱۹ و ۲۴۴). و أول من استخرج الأوزان العروضیة هو خلیل‌بن أحمد الفراهیدی (ت ۰۶۱) (ابن‌الندیم، ۱۹۷۸، ص ۶۳ و الحموی، ۱۹۸۸م، ج ۱۱، ص ۲۷) و لم یعرف العرب علمی البلاغة والبیان إلا فی‌القرن الثالث للهجرة أی بعد ما أقبل المسلمون علی الکشف عن أسرار البلاغة القرآنیة و دلائل الإعجاز فیه (ابن‌الندیم، ۱۹۷۸م، ص ۱۵) کأبی زکریاء یحیی‌بن زیاد الفراء (ت ۲۰۷ ه) صاحب کتاب «معانی القرآن» (انظر ترجمته فی: الحموی، ۱۹۸۸م، ج ۲۰، ص ۹) و أبی عبیدة معمربن المثنی البصری (ت ۲۰۹ ه) صاحب کتاب «مجازالقرآن» (انظر ترجمته فی: الحموی، ۱۹۸۸م، ج ۱۹، ص ۱۵۴) و ابن قتیبة الدینوری (ت ۲۷۶ ه) صاحب کتاب «تأویل مشاکل القرآن» (انظر ترجمته فی: ابن ندیم، ۱۹۷۸م، ص ۱۱۵ و زیدان، ۱۹۹۲م، ج ۲، ص ۴۷۸) و ممن تکلم عن عیوب القافیة هو خلیل‌بن أحمد وابن سلام الجمحیّ (ابن سلام،ج ۱، ص ۸۶) وابن قتیبة الدینوری (ت ۲۷۶ ه) فی کتابه (الشعر والشعراء، لاتا، ج ۱، ص ۳۹).

فلذلک لم یکن نقدهم فی بدایة الأمر نقدا مبنیًّا علی قواعدَ فنیةٍ و معاییرَ علمیّةٍ قائمة علی أسُسٍ جمالیة فنیة لفقدانهم القواعدَ النقدیة فمِن ثمّ لم یکن لهم بدٌّ إلا أن یلجأوا إلی فکرة نقدیة خاصة تُعرَف بـ «منهج‌المفاضلة» ثم تطورّت هذه‌الفکرةُ النقدیة فیما بعدُ و صارت منهجا نقدیا راقیا و مقبولا عندالنقاد.

و المفاضلة لغة: مِن فَاضَل بین الشیئین أی حَکَم بفضل أحدهما علی‌الآخر. و لا شکّ أن هذا التفضیل فی حاجة إلی شیء من‌التحلیل والتعلیل، إلا أن ناقد الجاهلیّة لم یکن یُفضِّل فیها شاعرا علی شاعر و أحیانا شاعرا علی معاصریه إلا معتمدا علی سلیقته و ذوقه، فإذن کان یُبدی رأیه بعبارات کـ هو أفضل الشعراء، أو هذا أشعَرُ الناس و بما یُشبههما، کما جاء فی حکم لبیدبن ربیعة، أحد أصحاب المعلقات، علی الشعراء الجاهلیین، حین قیل له: مَن أشعَرُ الشعراء؟ قال: صاحبُ القروح (یرید امرأ القیس)، و قیل له، فبعده مَن؟ قال: ابنُ العشرین (یعنی طرفة) و قیل له: فبعده مَن؟ قال: أنا. (ابن قتیبة، لاتا، ج ۱، ص ۱۲۱ و ابن رشیق، ۱۹۸۸م، ج ۱، ص ۲۰۴ و ابن عبد ربه، ۱۹۸۸م، ج ۴، ص ۲۲۰) کما نجد هذا الأسلوبَ النقدیَّ فی العصر الإسلامی أیضا، حیث قال عمربن الخطاب (ت ۲۳ ه‍) ـ و هو فی رأی ابن رشیق «کان من أنقد أهل زمانه للشعر و أنفذهم فیه معرفة». (ابن رشیق، ۱۹۸۸م، ج ۱، ص ۵۹) مَن قال:

أتیتُک عاریًا خَلِقًا ثِیَابِی علی وَجَلٍ تُظَنُّ بِی الظنونُ
فألفَیتُ الأمَانةَ لم نَخنها کَذلِک کانَ نوحٌ لا یَخُونُ

قالوا: النابغة. قال: هو «أشعَرُ شعرائِکم.» (الجمحی، لاتا، ج ۱، ص ۶۰ و الأصفهانی، ۱۹۸۶م، ج ۱۱، ص ۶). فیمکن أن یُقال إنّ الناقد کان یحکم علی‌الشعر عین طریق الإعجاب ببیت أو موقفٍ أو صورة أبدعها الشاعر، کما رأینا فی نقد عمر، و روی عنه أیضا قال أیّ شعرائکم یقول:

فألفَیتُ الأمَانةَ لم نَخنها کَذلِک کانَ نوحٌ لا یَخُونُ

قالوا: النابغة. و قال: هو أشعَرُهم. (الجمحی، لاتا، ج ۱، ص ۵۶ و الأصفهانی، ۱۹۸۶م، ج ۱۱، ص ۶)

و نجد هذه الصورة من‌المفاضلة عندالحُطیئة، لما سُئل عن أشعَرِ الشعراء، قال: الذی یقول:

لا أعُدّ الأقتارَ عُدمًا ولکن فَقدُ مَن رُزِئتُه الإعدامُ

(ابن قتیبة، لاتا، ج ۱، ص ۱۶۲ و ابن رشیق، ۱۹۸۸م، ج ۱، ص ۲۰۷)

و سُئل مرة أخرى، و قال: الذى يقول:

وَمَن يجعلِ المعروف مِن دونِ عِرضِه يَفره و من لا يتّقِ الشتمِ يُشتَمِ

(ابن قتيبة، لاتا، ج۱، ص ۲۴۱)

فإننا لو تأمّلنا فى هذهالأحكام والمفاضلات التى أطلقها النقاد لوجدنا أنها كانت أحكاما بعيدة عنالتحليل و التعليل أى نقدا غير مُعَلَّل (unjustitied criticism)، بل الناقد كان ينفعل بحسه و يميل إلى شاعر دون شاعر و يُفضّله من غير أن ينظر إلى أحكام النقد العامة، و هذا يعنى أنه لم يكن لديهم من موازين الشعر و معاييره سوى الذوق (taste) القطرىّ البسيط، و هذا النوع من النقد هو ما يسميه الأدباء النقد الفطرى (natural criticism) (انظر: التونجى، ۱۹۹۹م، ج ۲، ص ۸۵۶). و هذا النقد يشبه ما يسميه علماء الغرب بالنقد الانطباعى (impressionistic criticism) أو النقد التأثّرىّ الذى لا يهتمّ فيه الناقد بتحليل الأثر الأدبى و لا بمناقشة القضايا الجماليّة بل يعتمد على انطباعه و تأثّره بالأثر الأدبى الذى يدرسه.

و إننا نرى أنا هذا الأسلوب النقدى لم يتوقف عنالتحول بل إنه واصل طريقه نحو التقدم والتطور و سار نحو النقد المنهجى و تقويم الآراء النقدية و إصلاحها.

فأما المفاضلة فى العصر الأموى، فلو دققنا النظر فى الآراء النقدية التى أطلقها النقاد فى العصر الأموى لوجدنا مدى الاختلاف بين المفاضلة فى النقد الجاهلى والإسلامى و بينالنقد الأموى، إذ إن النقاد قدالتفتوا فى دراساتهم النقدية إلى ما لم يلتفت إليه القدماء، أو بعبارة أدقَ، لم يبالوا بها، كالأغراض الشعرية المختلفة والفنون المتنوعة فىالأدب.

فمن ثم بدأ النقاد فى هذه الفترة الأدبية يصنّفونالشعراء على أساس ما عندهم من تخصص الطبع الشعرى، كما صنّف نصيب بن رمَاح (ت ۱۰۸ ه) شعره و شعر معاصريه تصنيفا مبنيا على أسُس بيّنةٍ لم نجد مثلها عندالنقاد القدامى، و من ثمّ حَكَم علىالشعراء بقوله «جميلُ إمامُنا و عمربن أبى ربيعة أوصَفنا لربّات الحجال و كَثَيّر أبكانا على الدمن و أمدحُنا للملوك...» (الأصفهانى، ۱۹۸۶م، ج ۱، ص ۳۴۰) فإذا تأمّلنا فى ما قال قتيبةبن مسلم (ت نحو ۹۶ ه) عندما سأله الحجاج عن أشعَرِ شعراء الجاهلية و أشعَرِ شعراء

وقته، یتضح لنا هذا الموقفُ النقدی أشدَّ الوضوح، حیث قال: «أشعَرُ شعراء الجاهلیة امرؤالقیس، و أضربُهم مثلا طرفة، و أما أشعَرُ شعراء الوقت، فالفرزدق أفخَرُهم،و جریرُ أهجاهم، والأخطلُ أوصَفُهم.» (ابن رشیق، ۱۹۸۸م، ج ۱، ص ۲۰۶)

فنستطیع، بشیء منالتأمّل فی مفاضلة کهذه، أن ندرک أنالإجادة فی غرض منالأغراض الشعریةأصبحت هناک میزانا یوزن بهالشعرُ العربی فی النقد الأمویّ، و فیالأغلب نری أن هذهالموازنة تمّت بینالأقران، أی شعراء الطبقة الواحدة کالأخطل و جریر والفرزدق (انظر الجمحی، لاتا، ج ۲، ص ۲۹۷). فلما سُئل الأخطل: أیّکُم أشعَرُ؟ أجاب: «أنا أمدَحُهم للملوک و أنعَتُهم للخمر والحُمر (یعنی النساء)، و أما جریرٌ فأنسبُنا و أشبهُنا، و أما الفرزدقُ فأفخرُنا». (ابن قتیبة، لاتا، ج ۱، ص ۳۷۷).

فکلُّ من یتأمّل فی هذه الأحکام النقدیة یری أنها تدل علی أنالنقاد کانوا یحکمون علیالشعر أحکاما فیها شیء منالدقة والفطنة؛ فنلاحظ هذهالدقة فی حکمالأخطل بین جریر والفرزدق، حیث قال: «الفرزدقُ یَنحِتُ من صخرٍ و جریرٌ یغرفٌ من بحرٍ» (الجمحی، لاتا، ج ۲، ص ۴۷۴) و هو یقصد بقوله أن الأسلوب الشعری متین عند الفرزدق، إذ إن ما نُحِت من صخر یثبت، و ما غُرِف من بحر یتلاشی سریعا؛ کما نجد هذه الدقة فی قول الفرزدق حیث قال: «إنی و إیاه لَنَغتَرِفُ من بحر واحد، و تضطرب دلاؤه عند طول النهر». (الجمحی، لاتا، ج ۲، ص ۳۷۷) و نری مثل هذهالمفاضلة ما جاء فیالأغانی من حکم سُکینة بنتِ الحسین(ع) علیالجریر و الفرزدق (الأصفهانی، ۱۹۸۶م، ج ۱۶، ص ۱۸۰).

و هناک روایة رواها ابن سلام و أبوالفرج، أنه سُئل أعرابیٌّ: أیهما (أجریر أم الفرزدق) عندکم أشعر؟ قال: بیوت الشعر أربعة: فخرٌ، و مدیحٌ،و هجاءٌ، و نسیبٌ و فی کلّها غلَب جریرٌ.

فیالفخر قولُه:

إذا غَضِبَت علیکَ بنو تمیمٍ حَسِبتَ الناسَ کلَّهُمُ غِضَابا

و فیالمدح قولُه:

ألستُم خیرَ مَن رکبَ المَنایا و أندی العالَمینَ بُطُونَ راحِ

و فی الهجاء قولُه:

فَغُضَّ الطّرفَ إنّکَ مِن نُمَیرٍ فلا کَعباً بَلَغتَ و لا کِلابا

و فی النسیب قولُه:

إنّ العُیُونَ التی فی طَرفِها مَرَضٌ قَتَلنَنا ثمّ لم یُحیین قَتلانا

(الجمحی، لاتا، ج ۲، ص ۳۸۰ و الأصفهانی، ۱۹۸۶م، ج ۸، ص ۸)

فیمکن القول بأن النقد فی أخذ یزداد عندهم دقةً و تحلیلا و عُمقا، عندما کانوا یتساءلون عن أمدَحِ شاعرٍ أو أغزلَه أو أهجاه أو أنعَته، و إن لم یهتدوا إلی أصول النقد و قواعده، کما لم ینهجوا مناهج نقدیة معروفة، غیر أنه وُضِعت لدیهم قواعدُ أولیةٌ للنقد المنهجیّ.

الموازنة (parallel) فی‌النقد الأدبیّ

و مما لا یخفی علی أحد هو أن الحیاة الأدبیة و العلمیة عندالمسلمین لم تعرف عهدا أخصب برجال الأدب والفکر والعلم والثقافة من صدرالدولة العباسیة فبدأ العلماء وضع قواعداللغة و أسُس النحو و أسالیب البیان و أصول البلاغة کما ألّف الخلیل بن أحمد الفراهیدی (ت ۱۷۴ ه) کتاب «العین» فی اللغة و استخرج بحور الشعر فی کتابه «العروض» و وضع سیبویه «الکتاب» فی النحو العربی و ألف الجاحظ (ت ۲۵۵ ه) «البیان والتبیین» فی علمی البیان والبلاغة.

فعلی هذا الأساس عالج النقد العباسی قضایا نقدیة مختلفة کالقِدَم والحَداثة، واللفظ والمعنی، والأصالة والانتحال و غیرها من القضایا النقدیة التی دفعت النقد الأدبی إلی أن ینزع منازع مختلفة و یتجه اتجاهات متباینة و تظهر مدارس نقدیة مختلفة؛ فاختلفت أذواق النقاد و ثقافتهم، و من کان یفضّل سهولة الکلام و صحّة السبک و حُسن العبارة و حُلوا اللفظ فکان یختار مذهب البحتریّ و من کان یمیل إلی الصنعة والبدیع والمعانی الغامضة والاستعارات البعیدة والمعانی الجدیدة فکان یُفضّل مذهبَ أبی تمام (انظر الآمدی، ۱۹۵۴م، ج ۱، صص ۳ـ۵).

ولعل أوّل من قام بالموازنة المدوّنة هو محمدبن سلام الجمحی (ت ۲۳۱ ه) حیث اختار مائة و أربعة عشر شاعرا من شعراء الجاهلیة والإسلام، (و هذا العدد یساوی عدد سورالقرآن) ثم وازن بینالشعراء و رتّبهم فی طبقات، و جعلالطبقات فی کتابه ثلاثا و عشرین طبقة، (و هو عدد سنوات نزول الوحی علی النبی(ص)) ثم قسّم المؤلف الشعراء إلی طبقتین (الجمحی، لاتا، ج ۱، ص ۵۱ و ما بعدها) و قسّم کل طبقة إلی عشر طبقات، و جعل فی کل طبقة أربعة شعراء، فإنه أراد بهذا أن یقول إن هؤلاء الشعراء الأربعة نظراء، ـ إلا أن ابن سلام یُقر بأنه لم یحدّد مستوی الشعراء داخلالطبقة بدقة، (الجمحی، لاتا، ج ۱، صص ۴۹ـ۵۰) ـ و من ثم حاول أن یصبغ الدراسات النقدیة صبغة علمیة، ولکنه کما یقول إحسان عباس «لم یتجاوز التصنیف العام و بعضالأحکام الموجزة علی کل شاعر». (عباس، ۱۹۹۳م، ص ۷۰)

ثمّ جاء ابن قتیبة فی مقدمة کتابه(الشعر والشعراء) و وازن الشعراء علی أساس جودة اللفظ والمعنی وجعلهم أربعة أضرب (ابن قتیبة، لاتا، ج ۱، صص ۱۲ـ۱۶) و علی أساس الطبع والتکلف، والشعراء علی هذاالأساس عنده طبقتان: طبقة المتکلفین و طبقة المطبوعین. (المصدر نفسه، ج ۱، صص ۲۲ـ۳۴)

غیر أننا لا نقصد هنا أن معالجة هذهالدراسات النقدیة المقارنة التی لم تکن المقارنة فی نقدهم العنصر الأساسیّ، إذ إنها لیست إلا موازنة جزئیة لم یقیِّد فیها المؤلف بالدراسات المقارنة فی معناها الفنی؛ و إنما نرید أن تقتصر دراستنا علی موازنةٍ منهجیةٍ شاملةٍ لم یعرفها تاریخ النقدالعربی إلا بعد ما انقسم الأدباء فی شأن بعض الشعراء لما کان لکلّ منهم میزات شعریة خاصة، ففئة کانت تفضّل شاعرا و فئة تفضّل شاعرا آخر، فنشبت خصومة بین مناصری الأدباء و خصومهم کما نجد هذه الخصومة بین مناصری مسلمبن الولید و أبی العتاهیة، و بین مناصری أبی تمام والبحتری، و بین مناصری ابن المقفع و عبدالحمید، و بین مناصری المتنبی و خصومه، فوضع أبوبکر محمدبن یحیی الصولی (ت ۳۳۵ ه) کتابه «أخبار أبی تمام» ردّا علی من ینکر حسنات أبی تمام؛ کما یدعی هو بقوله: «و لو وهم أبوتمام فی بعض شعره أو قصّر فی شیء لما کان ذلک مستحقا

أن يبطل إحسانه، كما أنه قد عاب العلماء على امرئ القيس و من دونه من‌الشعراء القدماء والمحدثين أشياء كثيرة... فما سقطت بذلک مراتبهم». (الصولی، ۱۹۳۷م، ص ۲۳) و وضع‌القاضی علی‌بن عبدالعزيز الجرجانی (ت ۳۹۲ ه) كتابه «الوساطة بين المتنبی و خصومه» دفاعا عن‌المتنبی كما صرحّ بقوله: «ليس بغيتنا الشهادة لأبی الطيّب بالعصمة، و لا مردنا أن نبرئه من مقارفة زلة، و إن غايتنا فيما قصدنا أن نلحقه بأهل طبقته، و لا نُقصِّر به عن رتبته... و نمنعک عن إحباط حسناته بسيئاته...» (الجرجانی، ۱۹۶۶م، ص ۴۱۶).

فأما الموازنة التی يتناولها بحثنا فی هذالمقال هی الموزنة المنهجية التی لم يطرقها أحدالحسن‌بن بشر الآمدی (ت ۳۷۰ ه) فی كتابه «الموازنة بين شعر أبی تمام والبحترى» و إنه قد خطا بهذا التأليف خطوة واسعة فی‌النقد أو كما عبَّر عنه إحسان عباس بقوله: «الموازنة و ثبة فی تاريخ النقد العربی بما اجتمع له من خصائص لا بما حققه من نتائج». (عباس، ۱۹۹۳م، ص ۱۴۵؛ وانظر أيضا: مندور، ۱۹۹۶م، ص ۳۴۳ و ما بعدها)

فإن الآمدی و إن وازن بين شاعرين طائيين، غير أنه لم يقتصر على ما قاله الطائيان فی‌المعنی الجزئی و إنما يورد كثيرا من أقوال الشعراء الآخرين فإذا تكلم عن الوقوف على الديار لم يكتف بذكر ما قال الشاعران فحسب بل هو استشهد بأبيات للشعراء الآخرين أيضا (الآمدی، ۱۹۵۴م، ج ۱، صص ۴۳۰ـ۴۴۰). فبهذا قد عرض للقراء طرائق الشعراء العرب فی تناول المعانی و مذاهبهم فی التعبير، و استغل فی موازنتة جميع الموازين الشعرية والمعايير النقدية التی عرفها النقد العربی منذالبداية إلی عصره.

و قد طرق صاحب الموازنة فی كتابه الموضوعات النقدية التالية، كما يذكر هو منهجه: (المصدر نفسه، ص ۷۵) بيان احتجاج أصحاب أبی تمام و أصحاب البحترى فی تفضيل أحدهما علی‌الآخر (۱/۷ـ۵۷).

ذكر مساوئ أبی تمام (۱/۵۸ـ۳۰۶) والبحترى (۱/۳۱۱ـ۴۰۸) و سرقاتهما.

ثم يبدأ بـ «الموازنة» بين الشاعرين فی‌المعانی التی يتفق فيها الطائيان و بيان نهج‌الموازنة بينهما (۱/۴۱۰ـ إلی آخر الجزءالثانی)؛ ثم يتبع ذلک باختيار المجرد من

شعریهما مرتبا علی حروف المعجم.

فمن الفکرة النقدیة الأساسیة التی تناوله الآمدی هی:

أنه قد درس المعانی الشعریة دراسة تطبیقیة، بذکر نماذج من شعرالشاعرین و غیرهما منالشعراء العرب و من هنا وازن بینالمعانی المختلفة المدورسة موازنة تفصیلیة.

و عالج آراء النقاد المعاصرین له فی شعرالشاعرین عند دراسة احتجاج الخصمین. و أنه قد بیّن السرقات الشعریة بعد تحدید السرقات فیالبدیع الذی اخترعه الشاعر و اختص به و لا تکون فی ما یشترک فیهالناس منالمعانی المتداولة فیالشعر العربی. (المصدرالسابق، ص ۱۲۳)

و درس الألفاظ و بیّن غرابتها کما درس التعقید فیالکلام. (المصدر نفسه، ص ۲۹۳ و ما بعدها) و بیّن الأخطاء العروضیة التی تعتری أحیانا الأوزان العشریة. (المصدر نفسه، ص ۳۰۶ و ما بعدها) و هناک ملاحظة بودّی الآن أن یلتفت إلیها القراء الأعزاء، و هی أن موازنة الآمدی هی موزانة منهجیة فی ناحیتین، ناحیة المفاضلة و ناحیةالتطبیقات و کل منهما فی حاجة إلی دراسة واسعة، و بطبیعة الحال لا یسعها هذا الحیز الضیق، فلابد أن نترکها هنا لنواصل دراسة الحرکة النقدیة المقارنة فیالعصور الأخیرة.

المقارنة (comparison) فیالنقد الأدبی

مما لا شک فیه أنالموازنة صارت، بفضل الجهود التی بذلها أصحابها،نشاطا أدبیا یختلف باهرا عما رأیناه فیالعصور الماضیة، فاتسع أفق النقد الأدبی باتساع أفق الأدب لدی الأدباء والباحثین إثر بزوغ أشعة الحیاة الأدبیة الحدیثة و احتکاک الحضارة الشرقیة بالحضارات الغربیة و ازدیاد الصلات الثقافیة بینالأمم (انظر زیدان، ۱۹۹۲م، ج ۴، ص ۳۶۵ و ما بعدها و البستانی، لاتا، ج ۳، ص ۲۳۳ و ما بعدها و الزیات، ۱۹۹۳م، ص ۳۰۷). و من ثم نشب الصراع بینالمحافظین و المجدّدین، و من الطبیعی أن ینعکس هذا الصراع الأدبی علیالدراسات النقدیة فیالعالم العربی و یحدث تطوّر فیالمناهج الدراسیة إذ إنّ الناقدَ الحدیث قد ارتبط بالحیاة الاجتماعیة أکثر حیث نظر إلیه بوصفه مظهرا أساسیا

من مظاهر الحياة الاجتماعية، و من معالم هذا التطوّر هو ظهور نوع منالنقد يسمى النقد المقارن و هو كما يقول التونجی: «أرقى أنواع النقد، والناقد يجب أن يتصف بثقافة أدبية و نقدية عالية، لأنه سينتقد أكثر من نص و يقارن بينها و يصدر أحكاما دقيقة تلتزم القواعد المنهجية الجامعة بين النقد والأدب المقارن». (التونجی، ۱۹۹۱م، ج ۲، ص ۸۶۶)

و من معالم النقد المقارن فیالعصر الحديث هو تلقيب الأدباء بألقاب مختلفة كـ «أمير الشعراء» لُقِّبَ به أحمد شوقی (۱۸۶۸ـ۱۹۳۲) و «شاعر النيل» حمله حافظ إبراهيم (۱۸۷۱ـ۱۹۳۲) و «شاعرالقطرين» حمله خليل مطران (۱۸۷۲ـ۱۹۴۹) إذ كان مولده لبنان و إقامته بمصر، والحقيقة أنالنقد المقارن، و إن لم تخل من الأسس الجمالية الفنية،غير أننا نجد أحيانا تتلاعب بها الأذواق والأهواء، و من المسلّم به أن النقاد قد وازنوا بين الأدباء ثم حكموا عليهم ولقّبوهم بهذهالألقاب، إلا أنها لم تزل فی حاجة إلى شیء منالتأمل.

و أما النقد المقارن فی هذاالعصر فلم تحدّده الحدود السياسية ولا النزاعات الوطنية والشعبية و إنما اتجه اتجاها عالميا متجاوزا لحدود الأمم والوطن أو الشعب، غير مقصور علىالأدب العربی و رجاله؛ و إنما تطلّع إلى خارج بيئةالأدب العربی و تناول مشاهيرالأدب الأجنبی و مشاهير الأدب العربی و قارن بينهما، كما قارن بين الأفكار الأدبية والتيارات الفكرية والأجناس الأدبية فیالأدب العربی والآداب الأجنبية. (انظر غنيمی هلال، ۲۰۰۱م، ص ۲۷۷ و ما بعدها)

ومن هؤلا النقاد محمد غنيمی هلال فی كتابه «فیالنقد التطبيقی والمقارن» حيث تناول الكتاب أُسُسَ النقد الغربی والنقد العربی والتيارات النقدية المعاصرة، و هكذا غيره ممن كتب حولالأدب المقارن كمحمد مندور و محمد غنيمی هلال و عبدالسلام كفافی و طه و غيرهم منالأدباء؛ فيمكن لنا أن ندّعی أن بين النقد المقارن والأدب المقارن صلة وثيقة لا يمكن تحديد حد فاصل بينهما لأن النقد المقارن لا يقف عند الموازنة بين بيتين من شاعرين، أو بين قطعتين أدبيتين، أو المفاضلة بين شاعرين، فحسب و إنما يقارن بين أدبين مختلفين أو عصرين مختلفين و يقوم بدراة التفاعل المتبادل بينالأدبين و بهذا بدأ

ینمو فی‌العالم دراسات نقدیة ذات صبغة عالمیة تعکس شیئا من‌الاهتمام بآداب الأمم الأخری داعیة تجاوز حدودالقومیات الضیقة.

النتیجة

إن المفاضلة من‌الأسالیب النقدیة التی ظهرت فی‌الأدب العربی منذ القدیم حیث غرس بذورها الأولی فی أرض الأدب الخصبة النقاد القدماء بآرائهم البسیطة ثم تعهدها الأدباء حتی نشأت و نمت و تطوّرت تطورات کثیرة عبرالتاریخ بتقلبات السیاسیة و التطورات الأدبیة فسُمِّیت فی عصر «المفاضلة» و فی عصر «الموازنة» و فی عصر آخر «المقارنة» إلی أن أثمرت الیوم «النقد المقارن» الذی یماشی التیارات الأدبیة العالمیة و یحاول أن یستلهم التراث النقدی القدیم و یرتبط بهذه الحیاة الجدیدة التی عرفها العالم العربی الحدیث.

المصادر والمراجع

الآمدی، حسن‌بن بشر. ١٩٥٤م. *الموازنة بین شعر أبی تمام والبحتری*. ط ۴. مصر: دارالمعارف.

ابن الندیم. ١٩٧٨م. *الفهرست*. دارالمعرفة.

ابن عبد ربه. ١٩٨٨م. *العقد الفرید*. ط ١. دارالأندلس.

الأصفهانی، أبوالفرج. ١٩٨۶م. *الأغانی*. ط ١. بیروت: دار الفکر.

البستانی، بطرس. ١٩٨٩م. *أدباء العرب*. دار نظیر عبود.

التونجی، محمد. ١٩٩٩م. *المعجم المفصل فی الأدب*. ط ٢. بیروت: دارالکتب العلمیة.

الجرجانی، القاضی. ١٩۶۶م. *الوساطة بین المتنبی و خصومه*. مطبعة عیسی البابلی.

الجمحی، ابن سلام. لاتا. *طبقات فحول الشعراء*. جدة: دار المدنی.

الحموی، یاقوت. ١٩٨٨م. *معجم‌الأدباء*. ط ١. دار إحیاءالتراث الأدبی.

الدینوری، ابن قتیبة. لاتا. *الشعر والشعراء*. دارالثقافة.

الزيات، أحمدحسن. ١٩٩٣م. *تاريخ الأدب العربى*. دارالمعرفة.

زيدان، جرجى. ١٩٩٢م. *تاريخ آداب اللغة العربية*. دار مكتبة الحياة.

الصولى، أبوبكر. ١٩٣٧م. *أخبار أبى تمام*. القاهرة: لانا.

عباس، إحسان. ١٩٩٣م. *تاريخ النقدالأدبى عندالعرب*. دارالشروق.

غنيمى هلال، محمد. ٢٠٠١م. *النقد الأدبى الحديث*. نهضة مصر.

ـــــــــــــ . ١٩٧٥م. *فى النقد التطبيقى والمقارن*. نهضة مصر.

القيروانى، ابن رشيق. ١٩٨٨م. *العمدة فى محاسن الشعر و آدابه*. ط ١. بيروت: دار الفكر.

مندور، محمد. ١٩٩٦م. *النقدالمنهجى عندالعرب*. نهضة مصر.